لوي مكنيس

خاطرات عند سماعي بموته

جمال احمد

« اما هواي في الشعر ... فانا اميل للشعراء المتفتحة دنياهم ، لا يكتبون لذواتهم وحدها ، ولا لبعضهم البعض ، بمعزل عن القـــارىء ؛ وشاعري الاثير قوي البدن، يهوى الحديث يديره ، ويقرأ الصحف اليومية ويلم بالاقتصاد ، قادر على الضحك ملء رئتيه ، يحنح للرحمة ، يحب النساء يقدرهن، كثير الروابط الشخصية، تعنيه السياسة عناية ، وتمسه مساً ظواهر الطبيعة والجسد ، تترك آثارها فيه » .

– لوي مكنيس (١٩٠٧ – ١٩٦٣)

ذكريان الحتا عليّ وانا اسمع خبر موت لوي مكنيس هـذا الصباح : صورة في شارع الجامعة في الخرطوم ، واخرى في هلم ستريت في لندن ؛ واطياف من الماضي ترجع لايامي التي تعرفت فيها على شعره ، قبل ان القـاه ، ارجو ان اتصدى لهـا في النهـاية لتعين على وضوح الصورتين .

شارع الجامعة – وكان اسمه السردار تلكم الايام – من الطف الشوارع في العالم كله ، ولا اغـالي . على حافتيه اشجار طويلة تلف بعضها بعضاً ، وترتاح عندها العين لخضرتهـا الجميلة ، وتمسي قطعة من الجنـة بعد المغيب . بين اوراقهـا الخضر اضواء خافتة جذابـة تنير الطريق في غير ما اقتحام ، وتلوح خلال البساتين الممتدة للداخل اضواء ذات الوان تحتها اهلها يقرأون او يكتبون او يلعبون في هدوء ، امتد اليهم من الهدوء الذي يخيم على الطريق كله ، وبينه وبينهم مسافات تمتد بينها الحدائق . وتخال نفسك وانت تسري فيه انك في غابة ، صقلها الاهلون صقلاً وهذبتها الايادي الدربة لتنعم بهدوئهـا الانيق – وان كان لا يخلو من شباب الجامعـة ، يروحون للمدينة يروّحون عن انفسهم فيهـا اول المساء

جماعات ، ويغـدون حين يتقدم الليل ، فمساكنهم تقـع في الطرف الشرقي منه ، مضيئة غرفاتها حتى بعد منتصف الليل . لكن يومنا لم يكن الا يوماً من ايام الصيف ، وهو يقسو علينا بعض الاحايين . والح مكنيس ان نمشي الطريق كله الى الغرانـد اوتيل لنجلس على شرفته نشهد النيل ، فقد جـاء الخرطوم ليكتب قصة حياة النيـل ، ولا اذكر الآن على التحقيق ان كان في طريقه ليوغنـدا او منهـا ؛ اجهدتـه كتب الرحالة – فيما يبـدو – واراد ان يرى هذا البطل في مسراه ، كيف الهم الناس منـذ هيرودتس الى بيكر (كان آلان مور ، كاتباً عن النيل ، في ضمير الغيب آنذاك) . كان مكنيس في سرواله القصير ، الذي لم يفارقه الا ليلة اعرته فيهـا بنطلوناً اسود لاضطراره اليه . ولم يكن يوماً من ايام الجنة في شارع الجامعة ؛ كانت الاشجـار على جانبيه وسنى من لفحات شمسنا الخصبـة ، وكان الهجير يبهر العين ، يلف نفسه على نفسه لفات رمادية اللون يلاحق بعضها بعضاً على الاسفلت ، لا تستقر عندها العين لانها غير شيء : تجمعات تجمعت من هجير النهار .

وما اجـدى مكنيس سرواله القصير وقميصه الابيض ذو الكمين القصيرين المفتوح لدى الرقبة ؛ كان العرق على صفحتيه ورقبته يسيل خطوطاً متقطعة اراهـا كلما تطلعت اليه ، احثه على السير ، فما كانت نزهة سعيدة ، وهو يتمتم لي : « هذا يفتنني » ، يحتمي بعدها بصمت طويل ، يسير خطوات بعضها يؤود بعضاً ، كمن يريد ان يبتلي قوى احتماله . وتابع صمته البعيد الهـائم حين جلسنا على شرفة الفندق ، يرعى النيـل ولا يقول شيئاً – وقد حسبته سيفعل ، وقد مشينا المشية التي اراد . لم يحد بعينيه الا الى الخدم في حركتهم الرشيقة الخفيفة على الارض ، وخشيت الفضول فسكتّ ؛ وادرك انه اسرف في الصمت عني ، فقال فجأة يريح رجله التي حملت اختها زمانا طويـلاً الآن ، ويجلس في اعتدال لا ينظر في عيني : « سامحني ، انا فارغ البال والقلب ، لا اجد مـا اقوله » . ولوّح بسبابته في الهواء يحملق في عيني ، نصف جسده على كرسيه ونصفه الآخر ممتـد اليّ : « ولكنني خفيف كالهواء ، لا ادري ؛ سعيد ، ربما » . ووجدتني انا « الفارغ » لا اعرف ما اقول ، وصعب عليك ان تقول كثيراً لواحد ما عرفتـه الا امس – وبتعبير ادقّ مـا عرفني الا امس : فهو الرجل الذي يعرف الناس ، يقتضيك خبرات شركتهـا مع محدثك . ثم عدنا في سيارة صديق كان هناك ، حسب اننا نمزح حين قلت له اننا سنعود راجلين ، واستحى مكنيس ان يلح في الذي يريد ، وعدنا في عربة الصديق لا نقول شيئاً ، ومكنيس ينظر للطريق امامه ، حاذراً اشد الحذر الا يكلمه احد .

تفتن بعض المدن بعض الرجال ذوي الحساسية ، كما لو كانت فواتن ذات دلّ وغنج . وكان لوي مكنيس في اسار لندن ، في الذي ادركت ذاك الشتاء ؛ جسدياً يحب ما يرى ويلمس ويشم، يحس « سكرة الاشياء كائنة عديدة » حتى في حبة اليوسفي يتفتّها من فمه، كما قال في قصيدة له قديمة ذهبت الآن مثلاً في القصائد التي يكتبها الانسانيون يعبرون عن فرحتهم بالحياة ، ينقلها كاملة احياناً (كما تقول اليزابيث درو) اولئك الذين يسجلون مظاهر الشعر الانساني في العصر الحديث. كانت حانته الاثيرة في هلم ستريت على خطوات من مكتبه في الاذاعة البريطانية ، يأتيها في طريقه لداره ساعة الغذاء ، وكانت قريبة من هذه الحانة الوضيئة ذات المقاعد الخضر والارائك الزان ، كالقليل القليل من حانات لندن؛ لا تستقر على اريكة من ارائكها اثارة سيجار او خبز او جبنة الا وانقضت عليها (« ارجوك، عن اذنك ») سيدة تأتيك « نابلة » من تحت قدميك، لا تعرف متى غادرت مكانها وراء حاجزها وشقت الطريق بين الشاربين ، كلهم صديق لها ، يعابثها بعضهم بيده على ظهرها الاسفل (« الى اين ، بطتي؟ ») وبعضهم يقبل الهواء حولها (« على رسلك ، حلوتي »). وتعود تختفي في الزحام كما اتت ، تعابث الشاعر الكبير : «مساء الخير، مستر مكنيس » ، وهو يحمل اكوابه لرفاقه : فقد كان يصر عليهم ان يشتري هو لا هم . ولكنها لم تكن حانته الوحيدة في المساء ؛ يبدأ عندها مع رفاقه ، وكانوا من كل لون : خبير بشؤون روسيا ، عامل مصعد ، وتاجر كتب . اكثر من مرة – في ايامي القليلة هناك معه – خرجنا نجوب طرقات ذلك الحي ذاك الخريف ، طرقات اكثرها ضيق عتيق ، بلاطها حجر ، يحجز الذي يرى من مطر، ويتدفق بعضه جداول عبر الرصيفين ، تلتقط التقاطاً مكان القدم، لا يمنع شيء من هذا صخب لمتنا ولا تعليقات مكنيس الكثيرة او ثرثرته .

كانت سيجارته تتدلى من ركن فمه ، في المطر وفي الجفاف وفي الصباح وفي المساء ؛ يجمع اطراف معطفه البليل كل حين وآخر ، ينتفخ جانباه من الهواء ، اطرافه تطير هنا وهناك ، وكأن نصيبه منها هو ان يحفظها على جسمه ، لا ان تقيه ؛ ان تكون عليه، وقته المطر ام وقاها الريح لا يهم ؛ وشعره الاصفر الكث يتدلى كل صوب على رأسه ، فوق عينيه وعلى صدغيه ، وهو يهزه هزة خفيفة من آن لآن ، لتقعد حيث ينبغي لها ان تكون ، وهي لا تطيع هزته الا بمقدار ، تعود امكنتها العدة مع خطاه الواسعة الفحلة.

وتصل اللمة حانة على شارع رئيسي ، احفل من اختها بالناس واكبر ، فهي للناس كل

الناس ، يدخلها كل طارق في طريقه لحانته. وكانت على مقربة من ادجوير ، حيث المتاجر والمكاتب على الجانب ، تقذف بالذي فيها اول المساء وقد اضناهم الجلوس واضناهم العمل الرتيب . ولم يكن مكنيس حريصاً على ركن بعينه في المكان يستأثر به ، بل يقف اين يجد مكاناً لقدمه ، ليناول رفاقه ؛ وما كان حريصاً على جماعة بعينها ، فقد كان اقدر اصحابه على التعرف على الوجوه التي لقيها من قبل ، فقد كان يتمتع بالناس ، يسأل حال لقائهم اياه عما يعملون واين ، لا يستحي ؛ بالعكس ، يجد ما يقوله لهم ، وان كانوا طغاماً لا يأبهون باحد ، لان احداً لا يأبه بهم ، حذقة يدركون على عجل من يصانعهم فيتحدث اليهم ليعزيهم عما يفترض فيهم من حال تستحق ان يعطف عليها القادرون ، ويدركون على عجل ايضاً شأن من يتحدث اليهم ، لانه يحب الحديث اليهم لا عطفاً ولا حناناً ولا صناعة. وكانت هذه واضحة في مكنيس . تدق العاشرة ، فيرفع يده الى العشرات من الرواد : «مساء جم ، مساء كي، مساء كل واحد». ويخرج يلملم اطراف معطف المطر عليه ، يتطاير حوله ، ويهز رأسه هزة خفيفة تدور معها سيجارته المدلاة .

صورتان ، واحدة في الخرطوم كان فيها سمكة خارج بحره ، واخرى في لندن كان فيها على سجيته ، داخل بحره : (ولعل للامر تفسيراً غير هذا الذي اسوق) . صعيدان كان يحيا عليهما مكنيس . وسأتعرض لهذا بعد لحظة ؛ اما الذي لا جدال فيه فهو ان لندن كانت قريته الكبيرة ، يعيش كل نأمة فيها ، ويقدّر الخفيض فيها والرفيع والذي بين بين لا خفيض ولا رفيع . ولو كنت املك النص لنقلت لك شيئاً مما كتب في قصيدته «وداعاً لندن» حين رحل الى صسكس ، الضاحية الجميلة ، وظني الواثق هو انه ترك لندن حزيناً عليها : فقد كانت القصيدة مزيجاً من الهذر الساخر والجد العميق المحرك ، حديثاً عن اجرة البيت قد جاء حينه وعن خطرات له في داره التي كان يسكن . كان ابن الحارة في لندن ، كلها ملك يديه ، يعشقها .

واشرت الى ماض بعيد عن هذا كله بكثير ، استميحك عذراً ان وقفت عنده قليلاً فأطيافه تلح عليّ وانا ادير موت مكنيس في بالي وقد سمعت به منذ ساعة . كان للشعر فيه مكان عندي ، ما بلغت فيه مبلغ هاوسمان - ولنقل الحق — تلتمع فيه شعرات ذقنه وهو يقرأ الجيد منه ؛ ولكني كنت اعطيه المكان الاول في بالي وقلبي . كان والسياسة المجردة يتصارعان على الاستئثار باهتمامي ؛ تطوح بي السياسة اقصى اليسار ويعود لي الاتزان

حين اقرأ شيئاً مما كان يقرأ الناس تلكم الايام من شعر ، والحرب تقترب لنهايتهـا على ايام موقعة بريطانيا . وكانت الثلاثينات الشهيرة التي ما فتىء يكتب عنها الناس حتى يومنا هذا معنا ، ذلك لانها قويت على البقاء قوة ضارية ، وقد ورثت عشرينات اليوت ، واحـالت ميراثه الا اقله العاجز عن البقـاء الى معدات شعر ذلك العقد الفتي الكاشف . وكان نوارة البيت آنذاك أودن ، وقد سار بالشعر طريقاً غير طريق اليوت ، حوت كل موضوع وكل اسلوب في بناء الشعر ؛ والتف حوله شباب ذلك العهد من الشعراء – فما كان كاشر الوجه ثقيل الوطء كاليوت الذي لا ينطق عن الهوى ، اله والاهـة تفزع لا تسلي . كان فرسان أودن : سبندر وأشروود ولويس ومكنيس . ولنرجع لمكنيس : هكذا كان مكانه ، في مؤخرة الركب ، يذكر هؤلاء فلا يجيء الا في النهاية ، لسبب لا يذكره احد ولا يعرفـه احد . كان اساتذة الشعر يمرون كراماً على شعره، ولكنهم لا يغفلونه ؛ وكان الطلاب من عشاق الادب يذكرونه في ندواتهم بحب ، لا يقترب من الاعجـاب اقترابه من العطف ، عطف القوي . أودن فوق الاعجاب ، يخشى ذاكروه حتى التعرض لسبب هذا الاعجاب؛ شاعر كل خلقه بديع ، يهزم المعجب ويقهر المتردد . سبندر شاعر واع ، ان كنت تدرك ما اريد ، ما غيبته اودية الشعر عمـا في الحيـاة الواقعية من عناء وجد وهزل ، سيد على الشعر ، قوي العضلات لا تسوده بنات الشعر وان هام بهن ، الشعر اداته الاولى ولكنهـا واحدة من عدة ، تخدمه طيعة في يده ولا تسترقـه . أشروود هائم ما التصق بالارض . لويس يعجب ولكنه يأبى على قسماته ان تبين . اما مكنيس فقد كان واحداً من المجموعة . واحداً فقط ، لصيقاً ؟

وكان طبيعياً ان نأخذ هذا كله ، لا نسائل ؛ وكيف ونحن لانعرف عمّ نسأل ، ومن نحن على اية حال؟ هذه خطواتنا الاولى في التعرف على الشعر الانـكليزي، وما كان سهلاً ان نفقهه بل ان نقدره فنحكم على الجيد والرديء والوسط ؛ كان تراثاً من الشعر غير تراثنـا الذي نشأنا عليه ودربناه،ولا قواعد تشترك بين الاثنين فتعين على فهم هذا الجديد واستساغته . وكانت في الشعر الانـكليزي اثارة من «الصعوبة» التي تحدث عنها اليوت قبل عشرين عاماً وتزيد آنذاك ؛ كان الشعراء قد شرعوا في التخلص منها ومن اساره، ولكن اكثر الشعراء بقي حتى ذلك الحين في قبضة هذه القولة، الامر الذي زاد في متاعبنا لتفهم هذا الجديد من الشعر : جديد علينا فنحن اجانب عنه ، وجديد على نفسه فهو في طريق بعيدة عن اكثر الذي مضى من تراثه – عن مارلو وهريك وغري وكيتس وسواهم .

لكن صديقاً من الذين الفنا صحبتهم كان يرى في شعر مكنيس غير الذي يراه الناس، لانه كان يأخذ الشعر مأخذ الجد ، يقرأه يتملى اللفظ فيه، ويزداد خبرة مما يجب ان يقرأ. لم يكن مكنيس عنده واحداً من الجماعة ، وكان ينكر انكاراً ان هناك جماعة : فالشعر عملية موحشة مفردة ، لا يمكن ان يصدر عن جماعة . وكان اول من قرأ عليّ وهداني لعبارة من سبندر كان يعجب ببصيرتها ووضوحها ويسوقها دليلاً على انكاره ان هناك جماعة ؛ واعود اليوم بعد ثمانية عشر عاماً فاجدها من اصدق ما قيل عن هذه الجماعة ، جماعة الثلاثينات : «كانت هناك جماعة من الشعراء ، كسبت صيتاً بعيداً واسميت مدرسة للشعر الحديث ، ولكنهم ما كانوا حركة ادبية بالمعنى المألوف للعبارة : كانوا يحملون بعض الآراء المتشابهة ، وسعوا سعياً متعمداً الى الحداثة ، يختارون لشعرهم اخيلة من الآلات ومساكن الفقراء والظروف الاجتماعية التي كانت تحيط بهم . وكان المجتمع هو شعرها الاول ، يبرز آلامها وامراضها ويبحث بحثاً عن علاج لادوائها ، في علم النفس تارة وفي السياسات اليسارية تارة . وكان شعرهم ، وان نحا نحو اليسار لحد بعيد ، يعبر عن مشكلة الاحرار ، تشققت نفوسهم وتوزعت بين نموها الفردي وضميرها الاجتماعي ». عبارة بصيرة اتخذت الآن مكانها في المختارات عما يكتب الناس من نقد لشعر ذلك الزمان.

وكان شعر مكنيس مفرّقاً في الصحف ، ولا اذكر الآن (فقد بعد العهد) ان كانت « مجلة لندن » قد خرجت ، وهي المجلة التي نشر فيها من بعد اكثر شعره للقربى القريبة بينه وبين جون ليمان اول محرر لتلك المجلة بعد اختها الجريئة المقدامة «الكتابة الحديثة». ولكني اذكر ان صاحبي هذا كان يقرأ لي من مجموعة مكنيس الاولى « صحيفة الخريف » ، ولو كانت بجانبي الآن لنقلت اليك بعض الذي كان يقرأ عليّ هذا الصديق ويشرح: يشرح الكلمات التي لا اعرف ، فما كان يؤمن بشرح الشعر او تحليله ؛ ويقول لي هازلاً جاداً : « تفتّح ، عرّض نفسك لهذا الشعر ، ودعه ينقضّ عليك » . ولكنني لا املك هنا وانا اكتب هذه الخطرات الا الذي اختار المختارون من شعر مكنيس، والا مقدمة لمختار بعينه من الشعر الحديث اكره الا يكون معي كل حين ؛ تشير مقدمتها الى بعض ما كتب مكنيس في الشعر والثقافة والسياسة ، وارجو ان تعينني هذه على سؤالين سيكتب الناس كثيراً ليجيبا عليهما ، لانهما سيلحان علينا وقد سكت شاعرنا باكراً (ابكر مما يتخيله اي واحد رأى الفتوّة في وجهه ولمس التعلق بالحياة في نمط حياته : أوه ! كان مفتوناً بها على رؤيته الواضحة اياها) . السؤالان اللذان اعنيهما هما : اي نوع من الشعر كان يكتب

مكنيس ؟ فما جلس احد الا خلصاؤه ليدرسوا هذا الشعر ؛ واي سر يكمن وراء هذا المكان المتأرجح الذي لقيه بين لداته ، وكان بغيره اجدر ؟

لأسق لك نماذج اجدها في المختارين اللذين املك ، لنذكر معاً مذاق شعره (وقد انسيته انا على الاقل) . ولنبدأ بهذه القطعة من « صحيفة الخريف » التي اشرت اليها ، حين ذكرت لك عوارف الصديق عليّ في تقديمي لشعر مكنيس :

والآن ، فاتت عليكم ، راحت عليكم ،
حاذروا ان تنكروا .
اي نفع ان تقولوا :
« ابعدوا الكاس بعيداً ، ابعدوها » .
قد اعنتم ملئها ، فاشربوها .

شطرة من « صحيفة الخريف » ، كتبت على ايام ميونيخ وتشمبرلين والمظلة ونشرت على الناس قبل ان تثور الحرب باشهر في سنة ١٩٣٩ ، وكانوا في حيرة من امرهم لا يعرفون من يصدقون: هذا الاب الطيب يقول لهم السلم اولى فالبلاد التي تجتاحها جحافل هتلر بعيدة في السودتين لا يعنيهم من امرها كثير ، ام هذا الصوت المخشخش صوت تشرشل يقول لا، ويؤكد لهم قولة هتلر : « وغداً العالم » . تلك ايام « صحيفة الخريف » ، التي خرجت تخاطب الناس في لغة ميسرة يستعملها الناس والعامة ؛ كان مكنيس فيما بدا بعيداً عما يلغون فيه ، يوحي اليهم بقوله انه كان عارفاً بالذي ستقود اليه سياساتهم ، وكانت خرقاء لا تدرك ان بلادهم بضع من هذا العالم ايضاً وليست زعيمة رابطة الشعوب البريطانية وسيدة المستعمرات ؛ تشير الى الذي تريد اشارة ، فيقع ما تريد ؛ غواها سلطانها ونامت، نوم المرض لا « نوم العافية » — يغيظهم مكنيس .

ويأتي عيد الميلاد ، زمان الفرحة والحب ، فلا يجد الناس مكنيس معهم يفرح ويحب على النموذج الذي ورثوا عن الغابرين . يغيظهم مرة ثانية :

أ : القاك في وقت كله شر خبيث .
ب : هذه الاجراس لم تبق في رأسنا فكراً
ولا في قلبنا ذكراً يقال .
كل شيء ما عداها قد هرب ،
وهي شر .

حتى الاسماء انكرها على الناس (حيلة استعملها بعده غيره) ، سلبتهم الحضارة اياها

فصاروا « نمراً » عنده واحرفاً لا يميز شيء بينها ؛ سواسية اشبـاه ، نتاج مدنيـة الآلة ، خدم لها رقيق وهم هم الذين خلقوها . ويتخذ مرة ثانية موقفاً بعيداً – تعنيه الحوادث نعم وتؤرقه ، لكنه لا يرى الا ان يشير اليهـا : « ألم اقل لكم ؟ » ، ويمضي يؤكد بُعده هذا وغفلتهم فيقول ولا يرشد احداً ولا ينير الطريق . واحـدة من اثنتين: اما هو متواضع للحد الذي يكره فيه ويستحي ان يشير لطريق الخلاص واما هو متعال يحتقر الناس وما هم فيه، يتركهم في حالهم ليحكموا على انفسهم وحدهم، لا يحكم عليهم هو فالخيار خيارهم. يغيظ في الحالين ، يقول :

السماوات تنذر الناس
ان شمساً جديدة تشرق
وان هذا الصباح ، صباح
عيد المسيح ،
قلب الامر ؛ اي وجهة شئت
قلبه .

وكان اصراراً في اتجاهه لا يشبهه اصرار شاعر ؛ فقـد قال قبل عشرين سنة وتزيد شيئاً يشبه هذا الذي يقول ، لا يختلف عنه – لكم دينكم ولي دين :

وداعا لكم وداعاً
هذا الصباح ، صباح
عيد ميلادكم ،
تذكروا :
في صباح مثل هذا
قيل ان المسيح ، ابن الاله ،
جاء ؛
وخذوا القول اي مأخذ
ترونه .

وتأتي بعد هذا « موسيقى القرب » وهي من اكثر قصائـده انتشاراً ، فقد اختارها المختارون منذ شرعوا يعترفون لشعر مكنيس بمكان . اخيلة عديدة ، قاس بعضها وبعضها الآخر ساخر يغيظ . من يدري ما الذي كان في ذلك الرأس ، يبـدو لمن يراه اول الامر واحداً من ملايين الرؤوس ، تلقاها هنا وهناك حيث مشيت . اخيلة يشير بعضها لقسوة الانسان على نفسه وهو اسير حضارته العمياء ، وبعضها لتفاهة الحيـاة وقذارتهـا الا لدى قلة عرفت ماذا تحب وماذا تكره . والكثرة اشبه ما تكون بالفتاة في هذا الشطر الذي

اعربه من «موسيقى القرب»، تذكر الواحد بالملايين منهن في «ركن ليونز» وفي «ماركس وسبنسر» وفي غير هذين من منشئات مفيدة لك ولي ، مدمرة لهن :

ما في فايدة حبيبتي ، ما في فايدة يا حليوة ،
شغل ، شغل ، شغل ، كل يوم ،
والهوا يأخذ نصيبك ، والاصابع تنحني ؛ شغل ،
شغل ، كل يوم ، تتعب وتضني .
والقزاز واقع كل ساعة، ساعة بعد اختها ،
ما وقف، وكيف يقف،
للابد يقع القزاز .
حاذري ان تكسريها ، ان كسرتيها اللعينة ،
فاتك الجو ، ثم راح من يديك .
كيف لك ان تمسكيه ؟

وفي قصيدة اسطورية ، يقص عليك قصة فتى وفتاة ، هامت به وهام بها ، ويخرجان ذات مساء لمسرح الباليه ، ويجلسان يشهدان من اجلها هي – فقد كان قصير النظر ؛ وتطوف في ذهنه وهو يسمع خواطر تقول : «ها هنا نحن ، نطفح على الماء ؛ لا عمر ، لا مجداف» . ويقرر انه لن يستطيع ان يطفح ان لم يعدها ويعد نفسه لحياة ابقى لهما من هذه التي يسرقان لها الوقت كلما ارادا اللقاء . يريد ان يبقيا معاً ابداً كل حين ، كل ساعة ، ويتزوجا كي يكونا معاً الى الابد ، لا يفترقان – لكن :

ادركا وقد تزوجا انهما معاً ، صحيح .
لكن ابعد مما كانا ، كثير .
شاي الصباح فرق الاثنين ،
وفرقتهما صحيفة المساء ،
كل على مقعده البعيد ،
وزعقة الاطفال ، والفواتير
الفظيعة .

قاتل افراح، كما تقول عبارتهم التي يقولون لمن يرى القدّ في كل جميل يتكامل ؛ ربما ، ولكنه لم يعمد الى ان يكون «مسيخاً» ، كما نقول نحن للذي يفسد علينا المرح واللهو الذي نحن فيه .

ولاقف هنا عند النماذج ، فما قصدت لبحث عن شعر مكنيس وانا اسجل خواطري عند سماعي بموته ، ولاعد لايامي التي عرفت فيها شعره الذي حرصت عليه وقد هداني

الطريق صديقي الذي ابى ان يكون صورة للمناخ الفكري عن الشعر منتصف الاربعينات، فقدّر شعر مكنيس وغيره لا يعدو ان يعرفه .

الآن وقد مضت السنون على شعر مكنيس ، ومضى هو كما جاء محيراً (فما سمعنا بكثيرين ماتوا اثر نزلة برد ، كما مات هو) ، ما الذي وضع مكنيس حيث رأيت من لداته — وكان حقيقاً ان يذكر معهم في نفس واحد ، لا يسبقونه ولا يسبقهم ، يميزه مزاج كما ميز كل واحد منهم مزاج ، لا يفضل واحد اخاه ، يختلف عنه ؟ اكبر اليقين ان للنماذج التي سقت لك دخلاً اي دخل. وقف مكنيس من قضايا الساعة الكبرى — ميونيخ وقبلها اسبانيا وموقف الانسان المعاصر ازاء الذي اطلق من قوى تغلبت عليه في النهاية وهو مبدعها — موقف الرجل الحائر المتردد ، يغطي الحيرة بالحرية ، فيقول — ليخرج من حيرته — انه يحترم ما يرى غيره من رأي ، ويكره ان يحمله احد من شيء . وما كان هكذا سبندر مثلاً من رفاقه: مشى لليسار بفكره وشعره وبدنه (كان سبندر في اسبانيا). وابى ان يندفع مكنيس اندفاع رفاقه لليسار ويرى فيه مخرجاً من الفقر وتناقض عصر الصناعة ؛ وما وجد سبباً ليندفع ضد اليسار، كما فعل رفاقه اخيراً وقد رأوا انه اله افل، خذل الرؤى التي احتضنوا ودعوا لها دون حيطة . وكان صعباً على قارئيه ان يفهموا رجلاً ذكياً بصيراً قادراً ، كما دل عليه شعره ، يتخلف عن رجال مثله ، لا يتخذ موقفاً بعينه ، ويذهب بعيداً احياناً فيسلي بحمق الناس نفسه، يمتعها ويمرحها كما شاءت له لذته، فيكتب عن عقب سيجارة الشوفير ، وفرشة الاسنان ، وست الحان ، في لغة يتكلمها هؤلاء ولا يشرفها الشعر باتخاذه لها اداة ولا شرفها في الذي عرفوه من قبل ، لغة كالتي حاولت ان اقلد قبل قليل .

ويكتب الشعر احياناً فتعسر اخيلته وصوره ورموزه الا على القليلين ممن عرفوا تراث الاغريق والرومان واساطير القرون الوسيطة وحكايات العجائز في بلفاست ، حيث ربي اول الامر ورشف عميقاً من رؤى تلك البلاد ذات الخيال المثير وحيث اكتسب حبه للحياة ، كما رأيت في الصورة التي علقت بذهني وانا اراه في لندن ، صورة اختلطت باخرى اختلاطاً حين ذهب لاكسفورد يدرس آثار الاقدمين من يونان وروم ، ويتعمقها حتى ليبز رفاقه وينال الدرجة الاولى لدى تخرجه مضاعفة ، درجة لا ينالها الا من عصم ربك من هوى اكسفورد . وتمزق بعدها ، فيما اقدر انا ، ولم يلتئم : عاش على الصعيد

الايرلندي حيث جذوره الفحلة المتفتحة للطيب من الحياة، وعلى صعيد التراث القديم الذي ثقفه ، فازال الغليظ والحوشي من قدارته الاولية . كان مزيجاً من الجنوح للفردية المطلقة والاعتدال الذي يرى كل جانب، حتى لتخفى عليه الصورة وقد ملئت خطوطاً هنا وهناك، ترى آثارها بينة في الذي يأتيك عبر هذه الاشطار التي سقت اليك ؛ روح بين بين ، ما استقرت على هدى ولا استقرت على ضلال ، رؤى الحياة يتداخل البياض فيها كل حين بالسواد ، لا هي باطل الاباطيل فينصرف عنها (يبحث كما يبحث الطغام عن « حساب في البنك ، وخرقة فستان في التاكسي» ، لا يعنيه يوقي من الهند ، ولا كمسار من السوفيت) ولا هي غير ذلك .

ولكني لن انصفه ان تركته حائراً كما قلت، يحير الناس اين يضعونه في الركب. وهذه النماذج ليست كل شعره ، فقد كتب غيرها كثيراً واتجه اخريات عمره اتجاهاً توفر عليه ، اختلف فيه الروح فما عاد ساخراً كل وقت ، واختلف فيه الاداء فما عاد متعلقاً بلغة العامة في شعره . انتهى الى نغم حزين ولغة صقيلة ، تراها في « صلوات قبل ميلاد » ، قصيدة تعيد للذهن حوار المعري مع ولده يحاول ان يثنيه عن المجيء للحياة (كما رواها العقاد له في قصيدته المتأملة العظيمة) . ومكنيس يخاف « الجنس البشري » خوفاً يفزعه ، يخشى فيما يقول :

ان يحوطني بحائط طويل
وان يخدر الاحساس مني
بالمخدرات ، يسوقني سوقاً وراءه
بالاكاذيب الحكيمة المقنعة ،
وعلى الصلبان سوداً ينصبونها يصلبوني
وفي حمام دم فائر غال يلفلفوني .

في « صلوات قبل ميلاد » عاد مكنيس لسيرته الاولى التي اراد لنفسه ، فأعجلته عنها حماقات السياسيين اخريات الثلاثينات ، ووجدها تسخر سخرية العاجزين اليائسين امام الحوادث ، تجرفه وهو لا يستطيع ان يقاوم او يعدل او يشذب ، وعجز الاحرار قاتل ساحق ان كنت لا تعرف . عاد أخريات ايامه صورة للشاعر كما فهمه اوائل ايامه : « ما هو ببوق الجماعة ، وانما اشبه ما يكون بصوتها الهادىء الخافت ... يقدر ان يكون ضميرها وان يكون قدرتها الناقدة » . وخلصت الجماعة من كثير من اوزار فقرها المادي بعد الحرب العالمية الثانية ، ووجدت نفسها وجهاً لوجه امام اقدم معضلاتها : مكانة

الانسان في الكون ، حرية الافراد وازدهار الجماعة ، معضلة شغلت ذوي الوجدان واعطت الانسان المعاصر نتاجاً فكرياً في هذا الصدد ازعجه وايقظه (انظر اورويل و فتزغيبون و كويسلر) . وما كان ممكناً الا تشغل الحرية بمعناها العريض الشامل مكنيس ، شغلته حتى لآثر البقاء في الغيب ، لا يولد (كابن المعري لدى العقاد) ان كان مصيره ان يكون آلة همها « الطعام والشراب والخ ... » . دعا ملحفاً متواضعاً ، يقول في صلواته قبل ميلاده :

انا بعد ما جئت الحياة ، آه يا رب احمني ،
واعطني القدرة اشقى لا يحمدني احد .
ابق لي الانسان في الاعماق ، ربي .
لا تدعهم يقهروني آلة للموت بكماء صغيرة .
لا تدعهم يصنعوا مني ترساً في مكينة ،
يصنعوا مني شيئاً ، يعملوا مني حاجة ،
انا انسان .
لا تدعهم يذروا مني الكيان
كل صوب ، كل فج ، يعبثون ،
انا وحدة .
لست ماء في يد
تدفق الماء ، كما شاءت تسيل .
لا تدعهم يصنعوا الانسان مني حجراً .
لا تدعهم يدفقوني ، لا تدعهم يقذفوا بي ،
انا انسان .
والا فابقني في غيابات الضمير
واقتلني ، ان اردت .

ليس هذا شعراً يحسه ويستطيعه الا رجل يريد ان يكون ، ان يبقى ، رجل يؤثر ان يجوع قليلاً ان حفظ الجوع عليه انسانيته ، ويقت ان يشبع ان كان الشبع يقتضيه حريته. هكذا انتهى مكنيس ، رجلاً سيتخذ شعره طريقه الى المستقبل كلما اقتربت قدارة الانسان في الخلق والصناعة الى قدارته على العيش العزيز الحر مع الذي يخلق. كان مكنيس فرداً حين سخر وغاظ ، وكان فرداً حين نعى على انسان هذا الزمان حرصه الذي دق عنقه ، او كاد. سيفتقد مكنيس كل من امتع بشعره ووده ، واكبر اليقين انه ما فقد احداً: فقد عاش مع الموت قدر ما عاش مع الطفولة – يقول : «العابنا العاب جنازة» .